سوق الغرور

لوليم ماكبيس تاكري

— ٣ —

وانحدرت عائلة «سدلي» إلى الدرك الأسفل من الفقر حتى رهن والدها — بجهالة — كل شيء. ولم يستثن معاش «جو».

ثم كثر إلحاح الدائنين. ويئست المسكينة من قدرتها على أن تمدّ يد المعونة لأهلها، ففكرت في الزواج. وكانت تقابل بالاعجاب على الرغم مما كان يحيط بها من ظروف قاسية.

وكان قسيس المدينة يرى فيها زوجته المثالية. ولكنها عادت فمحت ذلك التفكير من خاطرها.

ومهما يكن من شيء فإن ذكرى «جورج» كانت كل شيء عندها. ولكن الضربة كانت شديدة الوقع على أمها التي عانت في السنين الأخيرة ألواناً من النكبات.

ثم ماتت تلك السيدة وغادرت حياةً قد ظلّت همومها تتزايد يوماً بعد يوم. وبقيت «أميليا» لتسعد أباها، ما وسعها الجهد، ولتحظى بالمستقبل الباهر العجيب لولدها.

وبينما هي تعاني ما تعاني، كانت خطط «بكي» تلقى نجاحاً. وكان أكبر نصر لقيته في حياتها يوم قدّمتها سلفتها «لادي جين» إلى البلاط.

ولقد غلب «سير بت» على أمره تماماً. ونالت امرأته أكثر مما كانت ترجو أن تنال ولكنها كانت امرأة في طبعها التهيب والحذر. وكانت تطيع أمر زوجها.

وبينما هم في العربة إذا بها تبدي ملاحظة عن جمال الحلي الماسية التي كانت تتحلّى بها «بكي» وعن الخرّم الدقيق الصنع الذي كان ينتهي به طراز ثوبها. فأكدت لها

« بكي » أن الجواهر والحلى إذ' هي جواهر وحلى مأجورة . أما الخزم فكان صفقة تمت لها منذ سنين .

فهل كانت « بكي » تنظر نظرة خبث إلى « سير بت » . وهي تشير الى جواهرها . ومنها المشبك الماسي الذي كان قد أعطاه لها ؟

والحق ان تلك الجواهر لم تعد الى دكان الجوهري ولكنها أغلق عليها القفل في درج صغير كانت « بكي » تحفظ فيه كنوزها . ومنها جملة طيبة من أوراق البنك التي لا يتولى «رودن» في أمرها أقل شك .

أما « بكي » فلم يبقَ يومذاك مكان لا يرحب بقدومها . وحتى أولئك السيدات اللاتي لا تعلق بهن أية شائبة . واللاتي كنّ ينظرنَ اليها من قبل نظراً شزراً . قد أصبحنَ اليوم يرحبنَ بها .

وحتى لقد أجبرت « لادي ستين » ، تلك السيدة المتعالية أن ترحب بها وتستضيفها . والحق ان تلك الفتاة الوصيفة قد خطت في سبيل الارتقاء تدريجاً منذ أيام مدرسة الآنسة « بنكرتون » . ومع ذلك فقد كان ينتابها الضيق أحياناً على الرغم عما يحيط بها من أسباب المجد . ذلك لأن المجد الذي نالته كان عبداً لم تكتنفه الصعاب !

وقد زاد تردد «لورد ستين» على بيتها . والمعروف أنه زوج امرأة من الطراز الحديث لا ينتظر منه أن يكثر من الظهور أمام الناس .

ولقد كانت هناك دائماً الآنسة «بريجز» . وقد أصبحت اليوم وصيفة « لبكي » تعني بقتنياتها . وكانت هذه الوصيفة لا تحصل على أجرها إلا قليلاً . وكذلك كانت قوائم الحساب — التي يقدمها التجار ثمناً لما يقدمونه لحفلات الشاء — لا يؤدى حسابها .

واتفق ذات ليلة بعد أن تمت «بكي» بسهرة فخمة في قصر « لورد ستين » وبعد أن ودّع «رودن» زوجته ، رأى هو أن يصل الى بيته راجلاً مع صديق له . وإذا هو ينظر فيرى شبح رجلين هو يعرفهما كل المعرفة

وكان هذان الرجلان مأمورين من مأموري تنفيذ الاحكام القضائية . فكيف النجاة منهما وكيف الهرب .

لذلك رأى أن لا مفرّ من قبوله دعوة ... السيد «موسى» أن يختفي ... في بيته وأن يقيم عنده حتى يخفّ أصحابه الى نجدته ... التي اضطره الى التخفي .

وليست هذه بالمرّة الأولى التي وجد ... في هذا البيت . ولذلك فقد استقرّ به المقام هناك . ثم أجمع أمره على أن يكتب في اليوم التالي إلى «بكي» وأن يطلب إليها أن تعمل على خلاصه وفك أسره .

* * *

وفي صباح اليوم التالي بعث إليها بكلمة صغيرة . وتوقّع أن تسعى الى فك أسره يومه ذاك . حتى لو أدّى بها الأمر ... عن مصوغاتها .

ولكنّ النهار كاد أن ينصرم ولم يأته أي جواب . وفي المساء جاءته كلمة صغيرة من امرأته تقول فيها : إن أمر حبسه في منزل « السيد موسى » قد أحزنها وأزعجها . وأنها لذلك وعلى الرغم مما بها من وعكة، وعلى الرغم من زيارة الطبيب لها فقد غادرت سريرها وانطلقت لتنظر ماذا تستطيع أن تفعل . ولكنّ ... « ناثان » رجل لا تعرف الرحمة السبيل الى قلبه . فهو يقول إنه لا يقبل إلّا سداد الدين كاملاً غير منقوص . ولكنها ألحّت في التوسل . وألحفت في الرجاء . فقبل أن يرهن بعض حليّها . وأنه ... بالمال غداً . وسوف يطلق عندئذٍ سراح زوجها . ثم ختمت كلمتها بقولها : ثم شدّت إلى سريري مريضة محمومة .

فلما قرأ زوجها هذه الكلمة تولّته الهواجس ... وهي هواجس شكوك كانت تطوف بخاطره منذ قريب . فتنبّه ... هي ... وإذا صحّ هذا فمن ذا الذي ... وجهها شطر ... وتلقى ...

ثم بعث بكلمة صغيرة الى أخيه يشرح له فيها ما وقع له ويسأله المعونة ... فلم تمض إلّا ساعة أو بعض ساعة حتى جاءه زائر يزوره .

فلما رأى الزائر لم يصدق عينيه فقد كان ... « ... » ... أخيه . إذ قد مسّ ما حلّ به من ضيق شغاف قلبها . وقد جاءته ... محتاجه من المال .

فلما نظر إليها فاضت دموعه . فقد كانت تحنو على ولده « رودن » ... حنواً

مستحسنًا ورأى فيها مثالاً لكرم الخلق. كاد ينسى أن له في هذه الدنيا وجوداً .

وفي حوالي الساعة التاسعة سار الى بيته . أو قل جرى الى بيته . ذلك لأنَّ دافعاً غريباً كان يدفعه الى التعجل . وقد امتقع لونه لمنظر بيته الذي شاعت الأضواء فيه . ثمَّ تولَّته دهشة فظلَّ لحظةً لا يستطيع حراكاً . ثم دخل بيته في صمت وسكون . فبدا البيت كأنه خلا من ساكنيه . فقد ذهب الخدَم . وغابت الوصيفة . وكان الولد في المدرسة . فصعد السلّم . وتوجّه الى إحدى الغرف العليا . ومنها كان يسمع صوت زوجته وهي تغني .

فلما فتح الباب رأى « بكى » جالسة على إحدى الأرائك . وهي ترتدي فستاناً جميلاً . وقد شعّ منها بريق الحلى . ولورد « ستين » ينحني على يدها يقبلها . فلما رأت زوجها استحالت ابتسامتها للثاتة الى حلقة . وكأنما تحجّرت أبصارها .

ولكن لورد « ستين » قد استشاط غضباً . ذلك لأنه ظن أن فخّاً قد نصب له . ثمَّ حاول أن يبدو لبقاً كيّساً فأومأ الى الزوج إيماءة ود . ولكن « بكى » أدركت ما في نظرات زوجها من معانٍ . فأرغمت على نفسها تؤكد براءتها . وتطلب الى لورد « ستين » أن يؤيدها . فخلق فيها اللورد . ذلك ظنَّ أن الزوجين مشتركان في تدبير الفضيحة . وقال ساخراً بأنها : إن كل قطعة من الحلى من شرائه . هذا الى أشياء أخرى لا يعلم حسابها . إلاَّ الله . وقال أنه لن يكون ضحية مكيدة يدبرها زوجان من الأراذل .

ثم حاول أن يغادر المكان ولكن « رودن » لطمه على وجهه . وهذه أول مرَّة أحسّت فيها « بكى » إحساس الاحترام لزوجها . ثم ذهب إليها الزوج . ومزَّق كل عرق عقود الجواهر والأقراط والأساور وقذفه بها كلها الى الأرض . وأصابت إحداها جبين « ستين » فتركت ندبة ظلت باقية في وجهه حتى المات .

ثم ذهب إليها وجهًا أن تجيئه عفتا خزائنها يعثر على ما ناله « ستين » من أيديها من نقود .

فلما فتح صندوقها ألفى أوراق النقد مكدَّسة وهي نقود تكفي لسداد دينهم وأخذ منها ما شاء أن يأخذ . ثم غادره متقمصة الهوز تبدو رائيها كأنها حطام امرأة . ولم تستطع « بكى » أن تراه أبداً بل طلب معونة سير « بت » في صبيحة اليوم التالي .

ولكن « رودن » كان قد سبقها إلى هناك وكذلك فصت قصتها « لادي جين » فضاعت الفرصة على « بكي » .

ومن سخرية القدر أن خبر تعيين زوج « بكي » حاكماً قد نشر في الجريدة التي ظهرت صباح ذلك اليوم . وكان المنصب في إحدى البلاد الاستوائية حيث ذهب « رودن » لكي يلاقي حتفه منفيًّا سعيداً .

أما « أميليا » فكان ولدها لا يزال هو وحده قرة عين لها . وكان هذا الولد يتدرج في نموه واكتمال محاسنه تدرج الهلال . وكان جده مولعاً به لا « يضن عليه بشيء عما يشتهي » .

وجاء رجل من الغرباء طويل القامة . أسمر اللون . الى المدرسة ذات يوم لكي يراه ولم يلبث الولد أن عرف فيه صديق والده « الماجور دوبن » الذي طالما حدثته عنه أمه . وسرعان ما أصبح هو وإياه صديقين حميمين .

أما « دوبن » فما كان أحد ليستطيع أن يقدر سروره لرؤية حبيبته « أميليا » لأن قلبه ما انفك يخفق بحبها . وما خمدت جذوة الحب في ذلك القلب يوماً .

وقد عاد كذلك « جورج » وقد أغمه وأحزنه ما وجد في أهله من عسر وضيق . فانتقل بهم الى محيط أبهى وأبهج .

وقد توردت وجنات « إمي » . ذلك لأن العيش عندها أصبح أكثر ليناً ورفاهية . ولكن أباها لم يعش ليرى تبدل الأحوال على الرغم من عنايتها العناية كلها بتمريضه وتطبيبه .

واتخذ الصبي « جورج » من « الماجور دوبن » بطله الذي يحتذي مثاله . وسرت أمه السرور كله لفرط عناية هذا الصديق الوفي بها وولدها .

ولكن ذكرى ذلك الحب تعيد لها ذكرى زوجها الغالي الذي فيه القبر . وهي لذلك لا تنظر الى « دوبن » إلا نظرها لصديق لا أكثر ولا أقل . وعليه هو أن يقنع بتلك النظرة .

وكانت المرأة الشابة لا تقدر هذه الجوهرة الثمينة التي قدمت لها حق قدرها .

واقترح السفر الى الخارج . فسافر « جوزيف » « والماجور » « وأميليا » . وجورج في رحلة الى القارة الأوروبية .

وفي ذات ليلة . وفي نادٍ للقمار بمدينة « بادن بادن » دُهش « جوزيف » إذ سمع سيدة متشمة تناديه باسمه . وكان صوتها لا يزال عذباً ندياً . ولو أن ملابسها لا تدل على الإناقة . ولو أنّ وجهها قد بولغ في صبغه وتلوينه .

ثمّ أيقن صاحبنا أنّ تلك السيدة هي « بكي » . ولكن قد غيّرتها السنون ! فكم من مدينة من مدن القارة شاهدت « بكي » وهي تتسكع تسكّع المشرّدين وهي وجيلة حزينة . ذلك لأنّ رائحة الفضيحة كانت تلاحقها أينما ذهبت

وإنها لقصة تبعث الأشفاق والرثاء . وإنها لقصة البراءة المفترى عليها . كما قالت في « لجوزيف » وكانت تستمين على توكيد حديثها بعينين لم يفارقهما الحوَر . وبذراعين هما فتنة للناظرين . فلما بلغ الأقناع به حدّ العقيدة . ذهب قُدُماً الى أميليا الذي تأثر قلبها لسماع القصة .

وكان « وليم » شكّاكاً كبيراً . فقال إن تلك المرأة قد جلبت النحس أينما ذهبت . وطلب الى « إمي » وألحّ في الرجاء أن لا تراها مرة أخرى . واستتبع هذا عراك عنيف طرحت أميليا على أثره صداقته ظهريّاً . تلك الصداقة التي ملكتها رخيصة فهانت عليها .

وأخيراً أعلن « وليم » أن صبره قد نفد . ذلك لأن ما يلقاه منها من إجحاف وجحود قد حزّ في نفسه . وقال إنه لن يستطيع بعد اليوم أن يبقى تحت رحمة امرأة لا تستحق هذا الحب القوي العميق .

وما إن انتصرت « إمي » . وما إن ارتحل « وليم » حتى بدت الدنيا في عينيها أضيق من كفة الحابل . وحتى عرفت عيناها الدمع الغزير . وحتى غاضت حمرة الورد من وجنتيها . وحتى ساد حياتها سكون وحزن . وحتى فقدت مباهج الحياة حلاوتها .

ولكن أرملة شابة جميلة غنية (بحكم ما خلفه لها « أوسبرن » من مال كثير) كان بديهيّاً أن تصبح غرضاً للأفاقين الذين يكثرون في المدن الكبرى .

فلما تولاها اليأس غاضت كبرياؤها . فكتبت ذات يوم خطاباً أرسلته الى لندن . وكانت

« بكي » قد أدركت مغزى كل شيء . وفي ساعة من ساعات المروءة رأت أن تتدخل فقالت لاميليا قولاً لا ينقصه الوضوح انها رفضت حبًّا تفخر كل امرأة أن تظفر به . وضحت بذلك الحب لقاء ذكرى قد نصل لونها وزالت صبغتها .

واحتجت «إمي» على هذا القول . وأنكرت على كائن من كان أن يمس ذكرى زوجها العزيز «جورج » .

ولكن « بكي » تولت وصفه حق الوصف . فقالت عنه إنه كان مغروراً ضعيفاً محتالاً . وتوكيداً لقولها أبرزت خطاباً كان قد أرسله اليها في تلك الليلة المشئومة ليلة «واترلو» يرجوها فيه أن تهرب معه .

وكان هذا الانشاء لدى « إمي » بمثابة الطلاق وعتق لقلبها العاني . وأصبح قلبها اليوم حرًّا يستطيع أن يحب من طال به الحنين الى حبه .

أما « بكي » فقد اختفت من طريق حياتهم الصحيفة الهائئة . وبقيت في خارج البلاد لتسعد « جو » الذي أحب البقاء في بلاد القارة . ولم يمض الا قليل حتى أصبح طوع بنانها .

ولما حاول « وليم » أن ينقذه وينجيه رفض هو أن يفارقها . وقد ثبت عند موته أنه لم يخلف وراءه إلاّ مبلغ التأمين على حياته . على أن يقسم هذا المبلغ بين « أميليا » وبين محبوبته « السيدة كرولي » .

وبعد حين من الدهر ورث ولد « بكي » الأرض . ولكنه يأبى أبداً أن يرى أمه ولو أنه جعل لها راتباً سخيًّا .

* * *

وأخيراً عادت هي الى انجلترا لتعمل أعمال الخير في مدينة «بث» . وكانت من أكثر العاكفات على بيوت العبادة . وكانت — والحق يقال — مثالاً حيًّا لخير أفراد المجتمع

(عن الانجليزية) مبارك ابراهيم